الكتب والمكتبات فى العصور القديمة*

إعداد

أمل وجيه حمدى

معيدة بقسم المكتبات والوثائق والمعلومات

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

فى مبادرة محمودة ورائدة قام الأستاذ الدكتور شعبان عبد العزيز خليفة بتقديم أول كتاب ضمن سلسلة «مجموعة الببليوجرافيا التاريخية» والتى تعنى بتاريخ الكتاب وتطوره فى الزمان والمكان على وجه الإطلاق وذلك لرسم الصورة العامة لهذا التطور شأنها فى ذلك شأن أى دراسة تاريخية فى أى مجال آخر. وتتكون هذه السلسلة من ثلاث حلقات تغطى الكتب والمكتبات فى العصور القديمة، والعصور الوسطى بجناحيها (الشرق الأقصى والشرق المسلم، الغربى المسيحى والبيزنطى)، والعصور الحديثة.

وينتظم هذا الكتاب فى خمس كراسات تدور فى فلك خمس حضارات يبدأها المؤلف بالحضارة المصرية القديمة حيث تحدث عن الكتب والمكتبات فى مصر القديمة موضحاً أن الحضارة المصرية القديمة هى «حضارة مغلقة لا آباء لها ولم تخلف أحداً على حد تعبير المؤلف نظراً لانعزال موقعها الجغرافى بسبب الجبال والصحراء مما ساعد على تطوير الفن والعمارة والدين والكتابة لذا فإن الكتاب المصرى والخط المصرى والإنتاج الفكرى المصرى قد نمت وتطورت جميعاً بعيداً عما سواها من دول الشرق الأدنى ومن هنا كان لمصر تأثيرها الحضارى على جميع الحضارات الأخرى التى احتكت بها سواء عن طريق التجارة أو عن طريق الغزو، ثم استطرد الكاتب فى تصوير الحياة المصرية على مجرى النيل ومدى تأثير هذا النيل على أسلوب حياة ومعيشة المصريين، بعد ذلك انتقل للحديث عن الإرهاصات الأولى للكتابة الهيروغليفية ومراحل تطورها المختلفة حيث يرى أن الكتابة لم تكن فقط حكراً على الكهنة باعتبارهم العالمين بأسرارها وإنما

* شعبان خليفة. الكتب والمكتبات فى العصور القديمة/ تأليف شعبان عبدالعزيز خليفة. ـ القاهرة :الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧ . ـ ٣٤٣ص: إيض؛ ٢٤ سم. ـ (مجموعة الببليوجرافيا التاريخية).

كان العمال الذين يحفرون تلك النقوش على جدران المعابد بإمكانهم قراءتها وكتابتها أيضاً حتى ولو لم يعرفوا معناها. ثم يؤرخ الكاتب لبداية التاريخ المصرى فى نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد حيث بدأ هدا التاريخ مع حدث تمثل فى توحيد الوجهين (مصر السفلى ومصر العليا) على يد مينا (نارمر) ولقد وجد المؤلف اختلافاً واضحاً فيما بين المؤرخين على تقسيمات التاريخ المصرى القديم وذلك بسبب تقسيم التاريخ المصرى إلى ثلاث ممالك ووجود فجوات بين الأسر المختلفة داخل كل مملكة فهناك نحو مائتى سنة مفقودة فى كل فترة تقريباً ومن ثم آثر المؤلف أن يوضح ـ فى شكل جدولى ـ الممالك المختلفة وعدد الأسر داخل كل مملكة هذا بالإضافة إلى تحديد السنوات التى استغرقتها كل أسرة. بعد ذلك انتقل المؤلف للحديث عن مواد للكتابة في مصر القديمة بادئًا بأهم وأعظم مادة للكتابة وهبها نهر النيل العظيم لمصر ألا وهى البردى حيث كان الكتاب المصرى القديم عبارة عن لفافة بردى فظهرت أول لفافة مكتوبة فى عهد الملك نفرير كارى من الأسرة الخامسة (٢٤٠٠ق. م)،كما أشار المؤلف إلى تحويل نبات البردى إلى ورق للكتابة، كذلك أشار إلى الأداة المستخدمة فى الكتابة على البردى موضحاً نوعيتها وكيفية تصنيعها والحبر المستخدم لها وأشكال الأختام التى كان يستخدمها المصريون قديماً، ومنها تحدث عن الهوامش فى الكتب المصرية القديمة وكيف أنها تعد عنصراً أساسياً فى تصميم تلك الكتب وأشار بعد ذلك إلى العناوين والسطور وأماكن حفظ لفافات البردى. بعد ذلك تناول المؤلف بالحديث الإنتاج الفكرى المصرى ومراحل تطوره عبر الممالك المختلفة مشيراً إلى أن هذا الإنتاج فى عهد المملكة الأولى كان يكتب على جدران المقابر وكان يتألف من قوائم الطعام والملابس التى يقترحها كهنة الملك للموتى، ثم تطور فى ظل الأسرة الخامسة إلى سرد للسيرة الذاتية للمتوفى وبعد قيام المملكة الحديثة فى مصر ضم الإنتاج الفكرى بجانب السير الذاتية مذكرات الوزراء وسجلاتهم وتسجيلاتهم التاريخية وذلك فى الأسرة العشرين. ولقد استعرض د. شعبان أبرز النماذج من الكتب المصرية القديمة مثل «كتاب الموتى» موضحاً الهدف منه والفصول التى يتكون منها، ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن الرسوم والإيضاحات فى الكتب المصرية وأشكالها المختلفة. أما عن الكُتّاب المصريين فقد أوضح المؤلف من خلال استعراض بعض النماذج من هؤلاء الكُتاب أهمية ومكانة وظيفة الكتابة حيث كانت تتم عملية تعليم الكتابة عن طريق: الإملاء، أو المدرس، أو مدارس رسمية أوتابعة للبلاط. ثم يختتم المؤلف هذه الكراسة بحديث خاص عن المكتبة فى مصر القديمة وذلك من حيث التسميات المختلفة لها وأشهر فهارسها مركزاً حديثه على مكتبة رمسيس الأكبر أو رمسيس الثانى وذلك من حيث نشأتها وتسميتها وأهم الرسوم التى حوتها جدران هذه المكتبة العريقة وذلك فى شكل سرد تاريخى، أعقبه قائمة لأبرز أمناء المكتبات فى تلك الحقبة.

الكراسة الثانية:

وتناول فيها المؤلف الكتب والمكتبات فى حضارة العراق والشام القديم بدأها باستعراض تاريخى لأهم الأسر الحاكمة لتلك البلاد يدعم ذلك ثبت تاريخى بالفترات الزمنية المختلفة لكل أسرة وأبرز حكامها وأهم العواصم التى اتخذت كمقر لحكم

كل منها،ثم تناول كاتبنا مواد الكتابة مركزاً على أهم مادة عرفت فى العراق والشام فى تلك الفترة القديمة ألا وهى الألواح الطينية من حيث تعريفها، وطريقة تصنيعها وأشكالها ونطاق استخدامها هذا فضلاً عن الأدوات المستخدمة فى الكتابة عليها.

يلى ذلك حديث عن الأختام وكيفية صنعها والألواح الخشبية المغطاة بالشمع التى استخدمها الآشوريين فى الكتابة وصناعة الكتب وكذلك البردى الذى استخدمه الأكاديين. ثم تناول المؤلف الإنتاج العراقى موضحاً أن ٩٠٪ من الألواح الطينية عبارة عن تقارير اقتصادية وإدارية عن الزراعة فى بلاد الرافدين وعقود قانونية وسجلات تجارية ومراسلات سياسية وحسابات فلكية وتقاويم، وجانب من تلك الألواح عبارة عن نصوص سحر وكتب رياضية وخرائط جغرافية... إلخ، يليه استعراض سريع لمدى تواجد الإيضاحيات والرسوم فى الكتاب العراقى وظهورها فيرى كاتبنا أن الكتاب العراقى لم يعرف الصور والرسوم إلا فى شكل أختام حيث كانت تظهر الرسومات على الأختام الاسطوانية وبالتالى يمكن النظر إليها على أنها كتب مصورة مصغرة فى حين ظهرت الصور والرسوم فى مصر مبكراً عنها فى العراق. ثم استفاض المؤلف فى حديثه عن حرد المتن فى الكتاب العراقى والذى انتشر كتقليد فى مصر والعراق القديم، كما وجد كذلك فى كتب البابليين الجدد، أما عن الكتابة فيرى المؤلف أنه من الخطأ القول بأن الكتابة كانت حكراً على جماعة صغيرة من الكهنة ـ على الرغم من صعوبة نظام الكتابة المسمارية ـ إلا أنه كنت هناك مدرسة خاصة ملحقة بالقصر أو المعبد موجهة لخدمة الكتبة. وعن الكتاب العبرى واليهود أفرد الدكتور شعبان حديثاً مسهباً احتل معظم أجزاء الكراسة أوضح فيه البدايات الأولى للكتاب العبرى كما أبرز أيضاً المراحل التاريخية المختلفة التى مر بها الكتاب العبرى مدعماً ذلك بجدول يلخص للتاريخ العبرى (اليهودى)، ويلى ذلك حديث عن الجنيزا وهى ظاهرة من ظواهر الشعائر الدينية عند اليهود ويعرفها المؤلف بأنها المكان الذى يعد لتخبئة أو دفن نسخ التوراة التى تتلف وتصبح غير صالحة للاعتماد عليها فى إقامة الشعائر الدينية أو أى أوراق تحمل اسم الله سواء كانت كتب عبادة أو سجلات للمحاكم أعقب ذلك حديث عن مواد الكتابة عند اليهود والتى تمثلت فى البردى، وشرائح الفخار المكسور حيث كانت تسمى بـ«الشقف» هذا علاوة على أدوات الكتابة لدى اليهود فقد وردت إشارات إلى استخدام الأقلام وغيرها من الأدوات مثل سكين الكاتب وسكين القلم بالإضافة إلى الأحبار المختلفة التى تغمس فيها تلك الأقلام. بعد ذلك تناول الحديث عدداً من الموضوعات الأخرى الهامة مثل الكتب العبرية الأخرى غير التوراة، ومراحل تطور الكراس العبرى، وحرد المتن فى الكتاب العبرى، ووصف المخطوطات العبرية من حيث الشكل والبنية. ثم يعود الكاتب مرة أخري للحديث عن المكتبات في العراق القديم فأشار إلى أن الإنتاج الفكرى الغزير الذى نشر فى هذه الفترة قد ساعد بشكل مباشر على إنشاء العديد من المكتبات التى تجمع وتنظم وتيسر الإفادة من هذا الإنتاج، ويرى الكاتب أن عمود حمورابى هو أول مركز معلومات فى التاريخ وهو مصنوع من الطوب الأحمر المحروق وقد كتبت عليه النقوش التى قصد بها أن تكون بمثابة جريدة أو صحفية تسجل الانتصارات الحربية والقرارات الملكية وصلوات

الآلهة، بعدها تحدث عن عدد من المكتبات الآشورية والتى فى مقدمتها مكتبة آشور بانيبال فى نينوى، ومكتبة كالاش، ومكتبة نيبور وذلك من حيث نشأتها وحجم ونوع مقتنياتها ونظم التصنيف والحفظ المتبعة فى كل منها. ثم تناول بالحديث أمناء المكتبات فى العراق القديم موضحاً السمات التى ينبغى أن يتسموا بها والمكانة الهامة التى حظيت بها هذه المهنة. وأخيراً اختتم مؤلفنا هذه الكراسة بالحديث عن مكتبات الشام القديم (فينيقيا) مثل مكتبة مارى، وإبيلا، وأوجاريت من حيث ظروف نشأتها وحجم مجموعاتها وطريقة تنظيم تلك المجموعات هذا بالإضافة إلى حديثه عن المكتبات الخاصة فى الشام القديم والمكتبات العبرية القديمة.

ثم تأتى الكراسة الثالثة وقد خصصها المؤلف للكتب والمكتبات اليونانية الرومانية فى الحقبة الكلاسيكية وقد استعرض فيها الكتاب اليوناني ومواد الكتابة لدى اليونان والرومان والتى تمثلت فى ألواح الخشب، ولفائف البردى الذى كان يستورد من مصر، وجلود الحيوانات (الرق) وذلك من حيث أشكالها المختلفة وطريقة الكتابة على كل مادة من هذه المواد وتعاقب استخدام كل منها. ثم جنح الكاتب للحديث عن حركة نشر الكتب اليونانية موضحاً الأركان الأساسية لهذا النشاط كما أشار إلى البدايات الأولى لتجارة الكتب عند اليونان ومدى توسعها مع إدراج قائمة بأشهر المؤلفين ذوى الكتب الأكثر رواجاً، ثم تحدث عن المكتبة الإغريقية فى الحقبة الكلاسيكية مشيراً إلى أنه لم يكن هناك سوى نوع واحد من المكتبات هو المكتبات الخاصة، وقد استعرض الكاتب عدة نماذج من تلك المكتبات. ثم أعقب ذلك حديث عن مكتبة برجاموم بآسيا الصغرى والتى كانت تنافس مكتبة الأسكندرية فى مصر، بعدها انتقل للحديث عن الحضارة الرومانية التى قامت على أنقاض الحضارة اليونانية ومع ذلك فقد تأثرت بالثقافة اليونانية حتى نشطت حركة النشر فى روما واتسع نطاقها وفى هذا الصدد تعرض المؤلف لظاهرة هامة انتشرت فى تلك الحقبة وهى قرصنة الكتب والأعمال الأدبية حيث لم تكن هناك حماية لحقوق المؤلفين فى القانون الرومانى لذا تعددت السرقات الأدبية.ثم استطرد فى الحديث عن متاجر الكتب فى أثينا وروما من حيث أماكنها وطبيعة الحركة داخل تلك المتاجر، بعد ذلك انتقل للحديث عن المكتبات الرومانية مستعرضاً أنواع تلك المكتبات موضحاً أبرز النماذج من كل نوع. واختتم المؤلف هذه الكراسة بحديث مستفيض عن تحول شكل الكتاب من اللفافة إلى الكراس فى الحقبة الكلاسيكية،فبدأه باستعراض الصراع ما بين البردى والرق كمواد للكتابة ثم الألواح الخشبية كمادة للكتابة والتحول من الألواح الخشبية إلي استخدام كراسة الملاحظات الجلدية واستخدام شكل الكراس فى الكتب المسيحية وغير المسيحية على حد سواء.

أما الكراسة الرابعة فخصصت لمكتبة الإسكندرية القديمة وقد تعرض فيها الكاتب إلى إرهاصات إنشائها على يد الإسكندر الأكبر المقدونى مدعماً ذلك بعرض جدولى يلخص الخطوط العامة للتاريخ اليونانى القديم،ولقد قدم المؤلف وصفاً دقيقاً للمكتبة من حيث التصميم والمقتنيات من اللفافات، والموضوعات التى تغطيها تلك اللفافات،

ومصادر التزويد المختلفة والتى كان من أبرزها الإيداع، كما عرض المؤلف أسماء أمناء مكتبة الإسكندرية أبرزهم كاليماخوس صاحب أشهر فهرس لتلك المكتبة والذى يعد بمثابة أول ببليوجرافية عالمية فى التاريخ. ثم أوضح الكاتب طريقة تصنيف اللفافات داخل المكتبة والخدمات التى كانت تقدمها المكتبة. بعدها تعرض للمصير الذى آلت إليه مكتبة الأسكندرية وهو الحريق سواء عمدياً أو غير عمدى كما فنّد المؤلف الروايات المختلفة حول قصة احتراق المكتبة معلقاً على كل منها ثم أبرز د.شعبان الرواية التى نُسبت إلى العرب المسلمين حول حرق مكتبة الأسكندرية ففند أدلتها وأبدى رأيه فيها.

وآخر كراسة فى هذا الكتاب وهى الكراسة الخامسة فاشتملت على نماذج مصورة من اللوحات والصور التوضيحية لبعض ما ورد ذكره فى ثنايا نص الكتاب مثل الألواح الطينية، ولفائف البردى، وأقلام البوص... إلخ وقد بلغ عددها ٣٥لوحة.

بقى أن نشير إلى أن هذا الكتاب يأتى فى وقت قلت فيه الكتابات حول هذا الموضوع وبالتالى نجد المكتبة العربية فى حاجة ماسة لهذه الكتابات. وعلى الرغم من انتماء الكتاب لمجال المكتبات إلا أن تخصصات أخرى يمكن أن تفيد منه كالتاريخ، والتراجم، والآثار.

❑ ❑ ❑

obeikandl.com